المحاضرة الثالثه والعشرون

- ثانياً: المنهج الأكلينيكي :

- لم يكن اهتمام بياجيه منصبا على دراسة الفروق الكمية في الذكاء بين الأطفال أو بين الراشدين , وإنما اهتم أساسا بالمتغيرات الكيفية (النوعية) التي تحدث في النشاط العقلي للطفل , وفي تفكيره , مع مراحل النمو المختلفة . فقد كان اعتقاد الراسخ , أن فهم سلوك الكبار وتفكيرهم لا يمكن أن يتم دون فهم المتغيرات النمائية , التي تحدث في الوظائف والأبنية العقلية للطفل منذ ميلاده حتى يبل مرحلة النضج العقلي . ولم يتصور النمو له=عقلي على انه زيادة في مقدار الذكاء أو كمه عند الطفل , وإنما تصوره على أنه زيادة تعقيده في التراكيب العقلية , تصاحبه تغيرات كيفيه في النشاط العقلي . ومن هنا لم يهتم بياجيه بإعداد اختبارات مقننة للحصول على تقديرات كمية لذكاء الأطفال , ولا بمعالجة النتائج معالجة إحصائية , وإنماء بالوصف اللفظي التفصيلي لتفكير الطفل .

- ولقد سمي منهج بياجيه بالمنهج الكلنيكي نظرا لأن دراساته كانت شبيهة في طريقتها بما يحدث بالعيادات النفسية . فقد كانت ملاحظاته للأطفال تتم بدلا من أن بطريقة تجريبية مضبوطة .فقد كان يلاحظ الطفل غالبا في مواقف طبيعية , في المنزل أو المعمل على حد سواء , وكان يعطي الأطفال الكبار نسبيا في السن , مشكلات بسيطة لكي يحلوها وفقا لدرجة نموهم , ويشجعهم على الحديث , ويوجه إليهم بعض الأسئلة . وبيانات بياجيه , مكتوبة عادة في شكل تقارير وصفيه , دون معالجة إحصائية , كتلك التي يقوم بها الباحثون التجريبيون غالبا .

وقد اختار بياجيه هذا المنهج في دراسة الذكاء والنمو العقلي للأطفال , لاعتقاده بأنه السبيل الوحيد لفهم الأبنية العقلية لدى الطفل , فعندما يوجه الباحث سوالأ للطفل , أو يضع أمامه مشكلة ما , يستطيع أن يتتبع تفكيره أينما ذهب إذ ليس الأمر كما هو الحال في المقابلة المقننة , التي يكون الباحث فيها ملزما بتوجيه الطفل عدد معين من الأسئلة , وبترتيب واحد محدد مسبقا , بصرف النظر عن إجابات الطفل , أو ما يصدر عنه من تعليقات , وإنما يستطيع الباحث أن يوجه من الأسئلة إلى الطفل ,مايراه مناسبا وكما يستطيع أن ينتقل من موضوع لأخر , وفقا لاستجاباته , وتبعا لما يراه المجرب , بخبرته , مع أنه السبيل الأفضل لفهم تفكير الطفل , وطريقة حله للمشكلات . أن هذا المنهج , ليس الهدف منه قياس ما يستطيع الطفل عمله , أو ما يعرفه الطفل فعلا , والتعبير عن ذلك تعبيرا كميا في صورة درجه أو ما شابهها , وإنما الهدف منه فهم الميكانيزمات العقلية التي تستخدم في التفكير وحل المشكلات ,الهدف هو التعمق فيما وراء الإجابات الظاهرة أو النهائية للطفل .

-أهم الفروق التي تميز منهج بياجيه عن المنهج الإحصائي :

١- الأداة التي يعتمد عليها المنهج الإحصائي في جمع البيانات هي الاختبارات الموضوعية أو المقننة التي تطبق على جميع الأفراد وفي شروط مضبوطة . أما بياجيه فيعتمد في جمع بياناته على ملاحظات غير رسمية لنشاط الطفل , وحلول لبعض المشكلات البسيطة التي يقدمها له, مع قدر ضئيل من الضبط التجريبي .

٢- يهتم الباحث في المنهج الإحصائي بما يستطيع الطفل عمله أو ما يعرفه ,متمثلا في عدد الإجابات الصحيحة على أسئلة الاختبار , دون الاهتمام بكيفية وصول الميكانيزمات العقلية التي تستخدم في التفكير وحل المشكلات , أي أنه يهتم أساسا بطريق ة الوصول إلى الحل , سواء كان هذا الحل صحيحا أو خاطئا , دون اهتمام كبير بكمية الإجابات الصحيحة .

٣-يحصل الباحث في المنهج الإحصائي , على بياناته بتطبيق الاختبارات على عينات من الأفراد كبيرة العدد , وكلما زاد عدد العينة زاد حجم العينة وتمثيلها للمجتمع الأصلي , كلما كانت الثقة في نتائجه أكثر . أما بياجيه , فكان يجمع بياناته من ملاحظة عدد قليل من جدا من الأطفال , وربما من ملاحظة طفل واحد , وقد يكرر هذه الملاحظات على عدد قليل آخر من الأطفال .

٤-يخضع الباحث في المنهج الإحصائي بياناته الكمية لمعالجة إحصائية معقدة , ويعرض نتائجه في صورة معاملات إحصائية ,أما بياجية فلا يهتم بالمعالجة نتائجه الإحصائية مطلقا ,ذلك أن نتائجه الأصلية ليست بيانات كمية , كما أنه يعرض نتائجه في صورة تقارير لفظية أو وصفية مفصلة (بروتوكولات) .

- ونتيجة لاستخدام بياجيه ومعاونيه لهذا المنهج الأكلنيكي في دراسة الذكاء تراكمت لدينا ذخيرة ضخمة من الكتب والتقارير والمقالات , الفريد من نوعها , وفي معالجاتها لموضوع الذكاء والنمو العقلي .

ثالثاً:الملاحظة التجربة :

- ثمة طائفة أخرى من علماء النفس , تتركز أساسا في روسيا ودول أوربا الشرقية , تتبع في دراسة الذكاء ذات المنهج الذي تتبعه في دراسة الظاهرات النفسية الأخرى , وهو الذي يعتمد أساسا على الملاحظة الموضوعية التجريبية .
- والواقع أن استخدام علماء النفس السوفيت لهذا المنهج في دراسة الذكاء والقدرات العقلية , لم يكن موجودا قبل الأربعينيات , ففي العشرينيات والثلاثينيات لم تكن تختلف دراسة الذكاء والفروق الفردية في الاتحاد السوفيتي عنها في أمريكيا وانجلترا . إذ كما سنوضح في عرضنا لأفكارهم لنظرية فيما بعد . اعتمدوا على في دراساتهم على آنذاك على الاختبارات والمقاييس , بل وكانوا يستخدمون هذه المقاييس في أغراض الانتقاء والتوجيه المهني , وتحديد الصلاحية المهنية على نطاق واسع , سواء في القوات المسلحة أو في المؤسسات المدنية المختلفة .إلا أن الأخطاء التي ترتبت على هذا الاستخدام الواسع للمقاييس والاختبارات في الأغراض العملية التطبيقية , أدت إلى اتخاذ قرار سياسي عام ١٩٣٦م وينبه إلى أخطاء القياس العقلي والنفسي ويحذر من أخطاره على البناء الاشتراكي .